This article has been scanned by iThenticate No plagiarism detected

Volume 3, Issue 3, June 2021
p. 58-65

THE POPULAR TALE AND ITS ROLE IN DEVELOPING THE CHILD'S IMAGINATION

<http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.3-3.6>

Nacera RILI¹

Abstract:

The popular tale is one of the most widespread literary genres among children, because it plays an important role in the mental and psychological construction of the child, and also helps to develop his perceptions and unleash his innate talents.

For the tale to bear fruit, it is necessary to take into account the appropriate age for presenting these masterpieces.

The child finds pleasure in hearing folk tales and is quickly drawn to his world full of excitement, paranormal, heroism and amazing wonders.

Key words: Children; Fiction; Fantasy; Popular Tale.

Received :
21/04/2021

Accepted:
02/05/2021

Published:
01/06/2021

¹ Dr. , Abderrahmane Mira-Bejaia University, Algeria, nacera.rili@univ-bejaia.dz, <https://orcid.org/0000-0001-9940-837X>

الحكاية الشعبية ودورها في تنمية خيال الطفل

نصيرة ريلي²

الملخص

الحكاية الشعبية من أكثر الأجناس الأدبية انتشارا وشيوعا بين الأطفال، فهي تلعب دورا مهما في بناء كيان الطفل عقليا ونفسيا، كما تساهم في تنمية مداركه وإطلاق مواهبه الفطرية. وحتى تؤدي الحكاية الشعبية أكلها، فإنه لا بُد من مراعاة المرحلة العمرية الموافقة لتقديم هذه الروائع.

يجد الطفل متعة في سماع الحكايات الشعبية، وينجذب بسرعة إلى عالمها الزاخر بالإثارة، والخيال، والبطولة والعجائب المدهشة، فتبهره بعوالمها البديعة، وبطريقة روايتها المشوقة، فيزداد تعلقا بها، بل وينقلها جيلا عن جيل.

الكلمات المفتاحية: الأطفال، الخيال، الخواص، الحكاية الشعبية.

المقدمة:

الحكاية الشعبية من أكثر أشكال التعبير الشفوي الشعبي التي أدت دورا فعالا في إثراء مخيلة الطفل وتنميتها من جوانب مختلفة كالناحية الاجتماعية والأخلاقية واللغوية والعقلية. يستمتع الشعب برواية الحكاية الشعبية على مسامع الأطفال لأنها تعبر عن مختلف المشاكل التي قد يصادفونها في حياتهم اليومية، واقتراح الحلول لها، إلى جانب تقديم المتعة والتسلية.

مشكلة البحث: تتركز مشكلة البحث في التساؤل التالي:
ما هو أثر الحكاية الشعبية في تنمية الخيال عند الطفل؟

أهمية البحث: تظهر أهمية البحث في النقاط التالية:

1. أهمية الحكاية الشعبية في حياة الطفل.
2. دور الحكاية الشعبية في تعليم الأطفال وإكسابهم خبرات متعددة.

هدف البحث: إيضاح أثر الحكاية الشعبية على تنمية خيال الأطفال.

1. تعريف الخيال:

أ. الخيال لغة:

يعرفه ابن منظور بقوله: « خال الشيء بخال خَيْلا وخَيْلة وخَيْلا وخَيْلا وَمَخَالَة وَمَخِيلَة وَخَيْلُولَة: ظَنَّهُ، وَالْخَيْالُ وَالْخَيَالَة: مَا تَشَبَّهَ فِي الْيَقِظَةِ وَالْحُلُمِ مِنْ صُورَةٍ، وَالْخَيْالُ وَالْخَيَالَة: الشَّخْصُ وَالطَّيْفُ، وَرَأَيْتُ خَيَالَهُ وَخَيَالَتَهُ أَيْ شَخْصَهُ وَطَلَعْتَهُ، مِنْ ذَلِكَ التَّهْذِيبُ: الْخَيْالُ لِكُلِّ شَيْءٍ تَرَاهُ كَالظَّلِّ، وَكَذَلِكَ خَيْالُ الْإِنْسَانِ فِي الْمَرَاةِ، وَخَيْالُهُ فِي الْمَنَامِ صُورَةُ تَمَثَالِهِ، الْخَيْالُ: خَشَبَةٌ تَوْضَعُ فِيقَى عَلَيْهَا الثُّوبُ لِلْغَنَمِ إِذَا رَأَاهَا الذَّنْبُ ظَنًّا أَنَّهُ إِنْسَانٌ » (ابن منظور، 2008، 3868، 3871)

ويعرفه جميل صليبا بأنه: «الشخص، والطيف، وصورة تمثال الشيء في المرأة، وما تشبه لك في اليقظة والمنام من صور، والخيال أيضا الظن والتوهم، وهو يدل في اصطلاحنا على الصورة الباقية في النفس بعد غيبة المحسوس عنها» (جميل صليبا، 1982، 546).

أما المعجم الوسيط فيعرفه بقوله: «الخيال: الشخص، والطيف، وما تشبه في اليقظة والمنام من صورة، وصورة تمثال الشيء في المرأة، ومن كل شيء: ما تراه كالظل، وخشبة يُنصب عليها كساء أسود في المزروعات يُفرَّع بها الطير، وفي مرائب الغنم يُفرَّع بها الذئب» (المعجم الوسيط، د.ت، ص. 266).

من خلال التعريفات السابقة يتبين لنا أن معنى كلمة خيال هو الشخص، والطيف، وما تشبه للمرء من صورة في اليقظة والمنام، كما يعني التوهم والظن.

ب. الخيال اصطلاحا:

² د. د. جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية، الجزائر، nacera.rili@univ-bejaia.dz

يعرف الباحث شاكِر عبد الحميد الخيال (Imagination) بأنه «القدرة العقلية النشطة على تكوين الصور والتصورات الجديدة، ويشير هذا المصطلح إلى عملية الدمج والتركيب، وإعادة تركيب الذاكرة الخاصة بالخبرات الماضية وكذلك الصور التي يتم تشكيلها وتكوينها خلال ذلك في تركيبات جديدة» (شاكِر عبد الحميد، 2009، ص. 226). ويعرفه مصري حنورة بأنه «تحويل أي شيء إلى صورة أو بناء صورة عقلية للنظر إلى المستقبل لاستحضار الماضي إلى الحاضر الحي أو لاختراع أشياء جديدة، ويستخدم الخيال لاقتحام حدود الواقع الجامد، وقد اتفق معظم الباحثين على تعريف الخيال بأنه المعالجة الذهنية للصور الحسية وبخاصة في حالة غياب المصدر الحسي الأصلي» (مصري حنورة، 2003، ص. 63).

أما الباحث صلاح محمد محمود محمد فيعرف الخيال «بأنه نشاط نفسي تحدث خلاله عمليات تركيب ودمج بين مكونات الذاكرة والإدراك وبين الصور العقلية التي تشكلت من قبل ومن خلال الخبرات الماضية تكون نواتج ذلك كله تكوينات وأشكالا وصورا جديدة تصل الفرد بماضيه، وتمتد إلى حاضره، وتطلع إلى المستقبل وإنتاج صور جديدة من خلال المثبرات المعروضة، وهذا التنوع من النشاط يعبر عن قدرة التلميذ على تخيل ظاهرة ما» (صلاح محمد محمود محمد، 2016، ص. 434).

2. صورته:

قد يتخذ الخيال صور عديدة مثلما بيّنه الباحث الحنفي عبد المنعم: (الحنفي عبد المنعم، 1975، 383).

- أ. إبداعيا (Creative): عندما يكون ذاتي التنظيم والاستهلال.
 - ب. تقليديا (Imitative): عندما يقلد بناء سبقه إليه آخرون استهلالا وتنظيما.
 - ج. متخيلا (Imaginary): عندما يكون من وحي الخيال وغير واقعي.
 - د. خياليا (Imaginative): عندما يقدم حولا لمشاكل لم يسبق أن حُلّت من قبل.
- ويقسم الخيال إلى هروبي وإجمالي وإبداع وتوقعي ودفاعي وإنشائي وتكيفي واسترجاعي.

3. مراحل نمو الخيال عند الطفل:

لم يتفق علماء النفس على تقسيم موحد لمراحل تطور الخيال لدى الطفل، واختلفت وجهات نظرهم حول هذه القضية، ولعلّ من بينها ما ذهب إليه الباحث أحمد نجيب في كتابه "أدب الأطفال علم وفن"، حيث قسّم الخيال في الطفولة إلى خمس مراحل، وهي كالتالي:

أ. مرحلة الخيال الوهمي المحدود (3-5 سنوات):

وتتميز هذه الفترة بنزايده النمو العقلي للطفل في الوقت الذي يتباطأ فيه النمو البدني، وفي هذه المرحلة يميل الطفل لسماع القصص الخيالية كقصص الحيوان أو الجماد الناطقة، إضافة إلى شغفه بالقصص الخرافية والخيالية.

ب. مرحلة الخيال الحر (6 - 8 سنوات):

وتتميز هذه المرحلة بالنمو البدني والتطور العقلي لدى الطفل والشعور بالاستقلالية، حيث يميل الطفل في هذه الفترة إلى إشباع رغباته عن طريق الاهتمام بعوالم أخرى غير عالمه الواقعي، عالم يزخر بالجن والعفاريت، والخوارق والعجيب، والجنّيات، والملائكة، والحيوانات، وهذه القصص الخيالية الشاسعة تهوّي للأطفال قدرا كبيرا من المتعة، وإن كانوا سيدركون بعد قليل من التساؤل أنّها خيالية لم تحدث في عالم الحقيقة» (أحمد نجيب، 1991، ص. 40)، لينتقل بعد ذلك الطفل من التخيّل ليرتبط أكثر بالمشووس، فعوض أن يركب الطفل العصا يركب حصانا.

ج. مرحلة البطولة والمغامرة (9 - 12 سنة):

وفي هذه المرحلة يُعجب الطفل بقصص الرحلات والبطولة والشجاعة والمغامرات والقصص البوليسية، وقصص الأبطال من المخترعين والمكتشفين، وقادة الجيوش المشهورين أمثال طارق بن زياد، وصلاح الدين الأيوبي التي تحببه في الخير والفضيلة...، وتنفره من الشر والموبقات.

إلى جانب ذلك يظهر «ميل الأطفال إلى (الاستهواء) وهو تقبل آراء الآخرين ممن يُعجب بهم الطفل أو يُقدّرون دون نقد ومناقشة، (...) بالإضافة إلى هذا فإنّ الطفل في هذه المرحلة يكون ميالا إلى حبّ الظهور، ومن ثم يكون شديد الرغبة في التمثيل، لأنّه يجد لذة عميقة في الاشتراك مع رفاهه في بعض أوجه النشاط والعمل، ويمكن عن طريق استغلال ميول الأطفال إلى الاستهواء والتمثيل والتقليد تعويدهم كثيرا من النواحي الصالحة» (أحمد نجيب، 1991، ص. 43).

وكلّما تقدم الأطفال في السن، يزداد الاختلاف بين الذكور والإناث؛ فالذكور يولعون بقصص المغامرات والفروسية، في حين تميل الإناث إلى القصص التي تصف الحياة المنزلية، والقصص الدينية، والقصص الرومانسية الزاخرة بالعواطف والانفعالات.

د. مرحلة اليقظة الجنسية (12 - 18 سنة):

في هذه المرحلة تبرز لدى البنات والذكور تغيرات جسمية بارزة ترافقها ظهور الغريزة الجنسية، كما يُظهر الذكر ميله لمصاحبة الذكور، وميل الفتاة إلى مصاحبة الفتيات.

هـ. مرحلة المثل العليا (18 سنة فما فوق):

وهي المرحلة التي يصل فيها الفرد إلى مرحلة النضج العقلي والاجتماعي، حيث تتضح الميول كلّ من الذكور والإناث ومثلهم العليا واتجاهاتهم في الحياة.

4. أهمية الخيال وأثره على الأطفال (المنتدى الإسلامي، 20 فيفري 2018):

أ. إثارة قدرته على التفكير، وتحريك ذهنه وعقله، حتى لا يقف جامداً أمام ما يراه ويمر به؛ ولهذا فإن اتهام الخيال بأنه يقود إلى الكسل الذهني اتهام غير صحيح، بل هو على العكس تماماً، ولكنّه في المقابل قد يكون مدعاةً إلى الكسل البدني، وهذا إذا استسلم الطفل لخيالاته، واقتصر عليها دون أن يستثمرها في أعمال إنتاجية أو إبداعية، إنّ الخيال بالنسبة لعقل الطفل كالهواء بالنسبة للبالون، فالخيال يوسع من عقله، ويدفع إلى الإبداع وتنمية المهارات المختلفة.

ب. إعادة تشكيل الحياة على نحو أفضل، فالخيال لا يقتصر على الماضي والحاضر، وإنما يتجاوزها إلى المستقبل، فيتم من خلاله طرح بدائل للواقع السلبي، أو طرح أسباب لتعزيز الواقع الإيجابي.

ج. تحقيق التوازن النفسي لما فيه من بعد عن أعباء الواقع وقيوده، وانطلاق لأجواء من التفكير الخلاق والمبدع.

د. تقريب الفكرة إلى نفسه وجذبه إلى مضمونه، لأن ما يحمله الخيال من أفكار لم تمر بالأطفال مصدر جذب إلى اكتساب ما في العمل الأدبي من قيم.

هـ. مساعدته على تقدير الأحكام على الأشياء: ما الخطأ؟ وما الصواب؟

و. مساعدته على التصرف في المواقف التي قد تواجهه في الحياة ومعرفة عواقب الأمور والتصرفات بأسلوب محبب.

5. دور الحكاية الشعبية في بناء خيال الطفل:

تشارك المجتمعات الإنسانية جمعاء، باختلاف لغاتها وأعرافها ودياناتها، بحبّها وتعلّقها الشديد برواية وسماع الحكاية الشعبية، لأنها كما عرّفها المعجم الألماني «الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية عن جيل لآخر» (نبيلة إبراهيم، 1981، ص. 119)، أما المعجم الإنكليزي فيعرّفها بأنها «حكاية يصدقها الشعب بوصفها حقيقة، وهي تتطور مع العصور، وتتداول شفاهاً» (نبيلة إبراهيم، 1981، ص. 119).

وكلمًا كانت الحكاية الشعبية زاخرة بالخوارق والغرائب والعجائب والبطولات، والجن والمردة والملائكة... إلخ، ازداد تعلّق المجتمع بها، وبروايتها واستعادتها كلّما دعت الحاجة إلى ذلك.

يُعدّ الخيال من العناصر الفعالة في تنمية الذكاء لدى الطفل، فهو مُحْتَاج لتنمية خياله الاطلاع أو السماع القصص الشعبية المختلفة قصد تنمية قدراته العقلية على طريق طلق العنان لخياله وطاقاته الإبداعية، وتطوير وعيه وطريقة فهمه للحياة وللكون معاً، لتكون بذلك القصة الشعبية وسيلة من وسائل التعليم والتثقيف والتسلية والمشاركة في الخبرة، وهذا ما أكدّه الباحث علي الحديدي في قوله: «القصص الشعبي من المصادر الرئيسية لأدب الأطفال، يعتمد عليه ويثري حكاياته، ومن هذا المنطلق تكون القصة الشعبية هي كل صيغة أو نموذج من الحكايات المكتوبة أو المنطوقة، ورتتها الأجيال المتعاقبة أعواماً طويلة» (علي الحديدي، 1988، ص. 187)، وهي ليست وقفاً على الصغار فقط، بل تتعداهم إلى فئة الكبار كذلك.

إنّ «قضية خيال الأطفال ليست قضية جديدة، فهي في مجال البحث والدراسة عند علماء النفس، والاجتماع والتربية والفنون، والأدب منذ فترة طويلة، وقد توصل الباحثون إلى أنّ الخيال ضرورة من ضرورات الإبداع، وهو الخطوة السابقة لكل بحث علمي واجتماعي، ومن ثمّ يجب أن نعترف به وننميّه، بل نعتز به على أنّه ضرورة من ضرورات عصرنا لا من محرماته، وفي الحق أنّ الاستمرار الحقيقي للحضارة المعاصرة قد يعتمد أكثر ما يعتمد على القيم والاهتمامات التي تملأ قلوب أطفال اليوم وعقولهم، وليس هناك حد لما يمكن أن تعني القصة أو الحكايات بالنسبة إلى حياة الطفل المعاصر اليوم وغداً وفي المستقبل البعيد» (علي الحديدي، 1988، ص. 140).

ومن أنواع القصص الشعبي التي غدت خيال الطفل كثيراً قصص الحيوان؛ وهي نوع من قصص لا ترتبط روايته بمناسبة معينة، فهي تُروى في أي زمان ومكان، وشخصياته لا إنسانية بل حيوانية بهدف تقديم النصيح والموعظة، وعادة ما تكون قصيرة، ولا تتجاوز عدد شخصياتها الثلاثة، يعرّفها الدكتور جونسون (Johnson) بأنها «قصة تخترع فيها شخصيات غير عاقلة من الحيوان أو الجماد، لغاية خلقية، تمثل وتتكلم، ولها عواطف ومشاعر كالنّاس» (عبد الرزاق حميدة، 2016، ص. 25).

وتُعدّ حكاية الحيوان «في صورتها المبكرة هي محاولة لتفسير خصائص الحيوان المختلفة وعاداته باعتبارها مصادر خصبة في مادة القصص البدائي» (مرسي الصباغ، 2002، ص. 59)، لأنّه كان يعيش معها أو على مقربة منها، سواء أكانت حيوانات أليفة، أم متوحشة، مثل حكاية الغراب والديك التي تفسر لماذا لا يستطيع الديك الطيران برغم من امتلاكه جناحين كبيرين، ولماذا يصيح دائماً وقت الفجر دون الأوقات الأخرى، وتشرح سبب امتلاء جسم القنفذ بالأشواك، لأخذه لمنفش أم العالم الذي صنّعه من خشب مجهز بمجموعة من المسامير الحادة لنفش الصوف وعندما لم تجده في مكانه المعتاد، بحثت عنه طويلاً إلى أن وجدته عند القنفذ يعيث به، فضربته به ضرباً مبرحاً حتى انغرست كل الأشواك في جسمه، كما فسروا قدرة الثعبان على تغيير جلده دون الإنسان بخداع الثعبان له.

ثمّ ظهر بعد ذلك لون آخر من قصص الحيوان، وهو ما يُسمى بالقصة الخرافية أو القصة العجيبة، والذي أطلق عليه الغرب (Les Fables). ويرى فوزي العنتيل بأنها نوع من القصص الناتج عن «تطور لحكاية الحيوان، وهي لا

تستخدم لإظهار خصائص الحيوانات في الواقع أو سلوكها، ولكنها تهدف إلى تأكيد الدرس الأخلاقي للناس، أو يقصد التقد (اللاذع، أو الهجاء لتصرفاتهم) (فوزي العنتيل، الفولكلور ما هو؟، 1965، 176).

ولع الأطفال الصغار منذ الأزل البعيد بسماع القصص الخرافية، وهذا ما أكدّه الباحث عمر عبد الرحمن الساريسي في قوله: «الأطفال هم أكثر الناس استجابة كونهم مستمعين ممتازين، وهم مولعون بالحكايات ذات الطابع الخرافي أكثر من غيرها لأنها تناسب خيالهم النامي، وهم أكثر الناس تأثراً بأحداث الحكاية، ولقد فُطِر الإنسان على حب القصص وعوالمها، كما أصبحت القصة أسلوباً حديثاً لتربية الصغار وتعليمهم شتى العلوم والمعارف» (عمر عبد الرحمن الساريسي، 1980، 270)، فهي تنقلهم «إلى عوالم من الخيال السحري بعيداً عن أرض الواقع المرير، وتسهل لهم ارتياد دنيا الأحلام والهروب من وقع الحياة بقسوته وصعوبته» (عبد التواب يوسف، 1988، 26).

لهذا النوع من القصص زمن ومكان معينين، فهو يؤدي في تجمعات السمر الليلية «وتُحرّم المعتقدات أداءها في النهار، إذ يعتقد الناس أن من يحكي مثل هذه الحكايات في ضوء النار يصاب بسوء» (عبد الحميد بورايو، 1986، 130) أو بلعنة الصلع، الذي قد يتعرض لها راوي القصة، أو أحد أولاده أو عائلته، حيث يجتمع الأطفال حول جدّتهم أو أمهم أو أختهم الكبرى أمام كائون (موقد) البيت قصد إرواء مخيلتهم الخصبية بأجواء هذه الحكايات المغرية والعجيبة. ومن خصوصيتها أنها تبدأ دائماً بصيغة تنقل بها السامع من عالم الواقع إلى عالم الخيال، ومن أشهر هذه الاستهلاكات نذكر ما يلي (عبد الحميد بورايو، 2006، 142):

- كان يا مكان في قديم الزمان، (...) واحد السلطان، والسلطان غير الله... كان كُذِّبْتُ أنا يغفر لي الله... كان كُذِّبْتُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ.
- خَارَفَتْنَا أَمْخَارَفَةُ الشَّيْطَانِ عَلَى الْأَوْطَانِ.
- كان يا مكان في قديم الزمان، بالْحَبَقِ وَالسُّوسَانِ، فِي حَجَرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
- لَكُ أَنتَ، كان يا مكان، خَيْمَتْنَا مِنْ حَرِيرٍ... خَيْمَتْنَا مِنْ الْفُطْرِ... وَخَيْمَةُ عَذِيَانَا مَلْيَانَةٌ عَفَارِبُ وَفِيرَانُ.
- وتنتهي الحكاية الخرافية بالعودة إلى عالم الواقع باستخدام الراوي للصيغ التالية: (عبد الحميد بورايو، 2006، 142):
- خُرَّافَتْنَا دَخَلَتْ الْعَابَةِ، وَالْعَامُ الْجَائِي تَجِيئًا صَابَةً.
- يَغْفَرُنَا رَبِّي... هَذَا مَا سَمِعْنَا هَذَا مَا قُلْنَا.
- حُكَايَتُنَا شَدَّتْ الْوَادِ الْوَادُ... وَأَنَا وَلَيْتُ مَعَ الْأَجْوَادِ.
- جِئْنَا بَرِيَّةً مِنْ فَاسٍ وَقَرَاهَا بِنِ سَعَادَةٍ، رَاهَا الْعَيْنُ تُحَبُّ النَّعَاسَ، وَالرَّاسُ يُحَوِّسُ عَلَى الْوَسَادَةِ.
- الْخُرَافَةُ خَذَاتُ الْخَرِيقِ، وَأَحْنَا خَذِينَ الطَّرِيقِ.
- أَنَا خَذِيتُ الطَّرِيقَ، وَهِيَ خَذَاتُ الْخَرِيقِ... الْخَرِيقُ

يؤمن الأطفال الصغار بحدوث ما ترويه الحكاية الخرافية في الواقع، وهو الأمر الذي يؤكده الباحث عبد الحميد بورايو في قوله: «يصدق الأطفال ما يحكى لهم من القصص، على أنه وقع بالفعل في زمن مضى، وبأن شخص القصة، مثل الجن، والأغوال، والسحرة موجودون في مكان ما» (عبد الحميد بورايو، 1986، 51) ويندمجون في عالم الحكاية «إلى درجة يفقدون فيها صلتهم الواعية بعالم الواقع، فينفعلون مع الأحداث، وتظهر على وجوههم سيماء التأثر إذا ما كان البطل أو القوى التي تساعد قد وقعوا في مأزق، وانتصرت عليهم قوى الشر، والارتياح والفرح عندما يتمكن البطل أو قوى الخير المساعدة له في اجتياز المأزق، والتغلب على الخصم» (عبد الحميد بورايو، 1986، 50).

لقد تشبعت الحكاية الخرافية بالخيال، فأبدعت العديد من الشخصيات الحيوانية الضخمة والوحشية كالطامة ذات الرؤوس السبعة التي يؤمن المجتمع الشعبي بوجودها، وهو وحش ضخم ذو سبعة رؤوس، يقعد عادة عند منبع الماء، فلا يسمح بتزود سكان المنطقة منه، إلا بعد ما تقدم له فتاة بكر حسناء قربانا له لالتهامها وكان هذه المرة الدور على ابنة السلطان الوحيدة، لذلك يعلن السلطان أمام الملأ أن الشخص الذي يتمكن من القضاء على هذه الطامة، سيكون زوجا لابنته الوحيدة. وهنا يظهر البطل الذي يأخذ على عاتقه مهمة تخليص ابنة السلطان والقرية معا من هذه الطامة، وبعد سلسلة من المغامرات يتمكن البطل من القضاء عليها بقطع رؤوسها الستة الواحد تلو الآخر، وترك السابع، فتموت الطامة، ويعود النبع إلى الجريان، فيفرح السكان بهذا الحدث السعيد، ويتزوج البطل من ابنة السلطان ويعيش الجميع حياة السعادة والهناء.

إلى جانب القصص الخرافية، هناك نمط آخر من القصص الشعبي الذي له أثر مباشر في وجدان الطفل وعقله، وهو قصص الغيلان، التي يحبها الأطفال لغناها بعنصر التخيل والتمثيل، إذ تصوره القصص بأنه «كائن غريب خارق للعادة رهيب في صفاته كما تتخيله العقلية الشعبية، جاء الاسم من (غاله أي أهلكه وأخذته حيث لم يدر، والغول المنية، واغتاله قتله غيلة، وهو أن يخدع الإنسان حتى يصير إلى مكان قد استخفى له فيه من يقتله، وكل من أهلك الإنسان فهو غول، والغول كل شيء ذهب بالعقل، والغول الداهية، وتغول الأمر تناكر وتشابه، والغول السعلاة والجمع أغوال وغيلان، والتغول: التلون، تغولتهم الغول توهوا» (السيد مرسى الصباغ، 2016، 41، 42).

وعليه، فالأغوال مخلوقات خيالية وهمية لا وجود له في عالم الواقع والحقيقة، تُوظف في ثنابا القصة من أجل إخافة الأطفال السذج، فهي ترمز للهلاك والموت وسوء المصير، ويزعم العرب قديماً أنها تعيش بعيداً عن البشر في الفيافي والفلات» لا تخرج على الناس إذا كانوا زرافات، لأنها تنهيب الجماعة وتتحاشاها، وإنما تخرج عليهم إذا كانوا وحداناً (...)، وهي لا تخرج من أجل ذلك في سوق عامرة، ولا في مدينة أهلة، ولا طريق معمر، ولا مكان مطروق، وإنما تلزم الأمكنة البعيدة، والأودية العميقة، والفيافي الفقيرة فتقيم بها، ولا تنترصد فيها إلا من توسمت في جنبه الفرق، وفي نفسه الخور، واطمأننت إلى أنه منفرد غريب، وهنالك تعبت به شر عبث، الفقار إذن هي مثواها» (عبد المالك مرتاض، 1989، 26).

أما السعلاة فهي «نوع من المتشيطنة مغيرة للغول، وأكثر ما تكون السعلاة في الغياض وهي إذا ظفرت بإنسان تُرقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفار» (أمين معلوف، د. ت، ص. 15)، تقطعت من لحوم البشر وقد استخلص روني باسط ولاوس Basset وLaoust أوصافها ومميزاتها فهي «تبدو كبهيمة متوحشة تتخذ سمات عجوز رهيبية متسخة وشرسة ذات قوة خارقة لكنها بليدة، أسنانها كبرى، وأذرعها الطويلة تنتهي بمخالب، كما قد تكون عمياء أو عوراء، وهي ذات خواص نسوية وأمومية مثيرة، فعلى كتفها تحمل عادة ثدييها الضخمين، إذ تجعل ثدييها الأيسر على كتفها الأيمن، وثدييها الأيمن على كتفها الأيسر بغية تمويه البطل، وتتردد الغولة على الأماكن غير المسكونة والمتوحشة كالغابة والغار والدغل، كما تسكن تحت الأرض في قعر بئر، أو في عرين أو فوق قمة صخرة، كما يمكن أن تسكن بيتاً غابوياً مؤتناً أحياناً بأواني المطبخ حيث تعيش حياة أسرية مع صغارها، وقد تمتلك خزائن مملئة ثروة وخيرات، والغولة لا ترتدي شيئاً عادة، فهي ذات مظهر حيواني وجسدها يكون مغطى بشعر أو وبر قد تتدلى منه أكياس صغيرة، وزوج مقص، وحين تنام تسمع في بطنها أصوات كل ما ابتلعت من حيوانات، ويمكن استخراج الأطفال الذين ابتلعهم أحياء بشق بطنها أو ببتن أصبع قدمها، وللغولة عدوان رئيسيان؟ الماء والكلب، فالكلب يخيفها بنباحه ويجبرها على الفرار خيفة، والماء الجاري يحاصرهما ويؤفقه أثناء مطاردتها للأبطال» (محمد أوسوس، 2008، 201، 202).

إلى جانب الغول والسعلاة نجد تيروحانين (Nymphes) ويُقصد بها الجنّيات، وهي ما تعرف بالفرنسية Les fées «فكونها صادرة عن المياه والأشجار يعني أن لها ريمًا قرابة ما مع العفاريت/الجن démons (...) التي تأتي عادة إلى تلك الأماكن، فهي تتمثل في الحكايات كروح الشجرة أو روح الماء، وتظهر قرب بعض الينابيع» (محمد أوسوس، 2008، 149)، وهذه المخلوقات لا نجد لها إلا في القصص الأمازيغية والأوربية دون القصص الشعبية العربية.

ومن أبرز الحكايات التي غدت الخيال عند الأطفال كذلك، نجد حكايات الخوارق وهي «عبارة عن كلّ الأشياء الغريبة المعجزة والمخالفة للعادة (...) هي تلك التي تحمل الدهشة والتحير عند المستمع لها من منطلق الأكاذيب المختلفة التي تسردها بصفة عامة (...) إنها شكل تاريخي اعتراه الخلط والغموض نتيجة للأكاذيب والافتراءات التي أضيفت إليها عبر تاريخ البشرية» (مرسي الصباغ، 2016، 75)، البطل في هذا النوع من القصص «لا يغلب، ويقوم بأعمال تستعصي على غيره، وتعتمد هذه القصص على صراع لا تخو ناره بين الخير والشر، بين الساحرة الشريرة والرجل الطيب، بين الرجل المحتال والرجل الصادق. ومن الملاحظ أنّ البطل في هذه القصص يكون غالباً مدافعاً عن الخير وأهله، محارباً للشر والأشرار، ولذا فإن الغلبة تكون له» (المنتدى الإسلامي، 20 فيفري 2018). ويلعب هذا النوع من قصص دوراً إيجابياً في حياة الطفل وتربيته أخلاقه، فهي تساعد على التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل.

ومن ناحية أخرى تتحدث حكايات الخوارق عن وجود بعض الكائنات فوق الطبيعية كالجن والعفاريت، وهي كائنات حقيقية ورد ذكرها في القرآن الكريم، ويرى مرسي الصباغ أنّ الجن «نوع من الخلائق بين الملائكة والشياطين، خلقوا من مارج من نار» (مرسي الصباغ، 2016، 66، 67)، وهم مثل البشر يأكلون ويشربون ويتزوجون، ويتناسلون، ويموتون، ويُجازون على أعمالهم «إنهم كائنات غيبية شفافة لا تُرى إلا إذا تقمصت شكلاً من الأشكال المعروفة كالحَيوان والإنسان، كما أنهم يتخذون من باطن الأرض مسكناً لهم، وشخصهم تضاف إليها صفات الشذوذ في الهيئة والمسكن والسلوك والصوت» (مرسي الصباغ، 2016، 67)، يمكنها أن تطير وتقطع المسافات الطوال في ظرف زمني قصير جداً. وقد يُثير هذا النوع من القصص «في نفوس الأطفال والخوف والرعب، بسبب طبيعتها، وطبيعة الأحداث والشخصيات وأشكالها فيها، وحين يصل الخيال فيها إلى حد إثارة الرعب، فإنها تصبح من النماذج المرفوضة» (المنتدى الإسلامي، 20 فيفري 2018).

ومن أكثر أنواع الحكايات الشعبية تداولاً بين العامة، الحكايات التي رُيّنت بالسر والخيال والعجائبية والفتازيا وهي حكايات «تتصف أحداثها بسيطرة القوى السحرية، والقدرات الخارقة للطبيعة على موضوع الحكاية، وطرق حلّها» (عايدة فؤاد النبلاوي، 2015، 357)، فقد تخيل الإنسان في عصور سابقة وجود بعض الأدوات السحرية كبساط الريح الطائر الذي يسمح له بالانتقال من مكان إلى آخر في وقت قصير، وطاقيّة الإخفاء التي تحجبه عن الأنظار، والعصا السحرية» وهي عناصر ثلاثة تعتبر عن حلم الإنسان في تجاوز حدود الزمان والمكان والمادة والرغبة في امتلاك قوة فاعلة تخترق المستحيل» (محبك أحمد زيد، 2005، ص. 80).

وقد تمكنت الاكتشافات والاختراعات الحديثة من ابتكار بعض هذا الخيال، حيث لجأ بعض الفيزيائيين إلى صنع ملابس تحفي مرتديها عن الأنظار، كما توصل علماء آخرون إلى تحقيق حلم الإنسان بالطيران عن طريق اختراع الصواريخ والطائرات والمركبات الفضائية، واختراع العقل الإلكتروني (الكومبيوتر) بدلاً من من الخاتم السحري، وهو ما يؤكد أن

الخيال أساس كل اختراع وإبداع لذا يصر علماء النفس والاجتماع على ضرورة تنشئة الطفل على سماع الحكايات الخرافية العجيبة منذ الصغر لزرع بذور الإبداع في نفوسهم.

أما العجائية فهي « نزعة إنسانية، قوامها ابتكار ما هو عجيب، والتعجب هو ما يكسر المألوف، ويتجاوز الممكن ليخترق المستحيل، ويحقق ما لا يمكن تحقيقه، محدثا بذلك حالة من الدهشة، معتمدا على الابتكار الذي يقيم علاقات غير متوقعة وغير ممكنة بين الأشياء، والعجيب هو من نتاج خيال عفوي بسيط أقرب إلى السذاجة، وهو خيال مصدق كأنه حقيقة واقعة، ومصدره روح شعبية، وغالبا ما يأتي لتحقيق الخلاص عندما تنعدم كل الحيل وتنقطع كل السبل، وهو تعبير عن قهر داخلي أو حرمان وقمع، أو محض انطلاق خيالي لتحقيق المتعة الفنية، وكلما كان موعلا في اختراق المستحيل كان أكثر تأثيرا، ولعل مرجع العجائية إلى رغبات أولية غير مشبعة لدى الإنسان، فهو من خلال العجائية يحقق كثيرا من الرغبات المستحيلة، والعجائية» (محبك أحمد زياد، 2005، 86، 87).

ومن عجيب الحاضر كذلك في الحكاية الشعبية ظاهرة المسخ، أو الميثامورفوزات التي يتم فيها تحول الإنسان إلى كائن آخر سواء أكان حيوانا أم جمادا، ففي حكاية حب سليمان اقتلعت زوجة الأب عيني وأطراف البطلة الضحية مقابل أن تسقيها بالماء، ثم تركتها في ركن مظلم في الطريق، حطّ غراب بجوارها وعرض عليها مساعدتها ونصحها بأن تمتنع عن الكلام مع القافلة الأولى، وتلتبس صوفا سوداء من القافلة الثانية، نفذت البطلة تعليمات الغراب فتحوّلت إلى حمامة بيضاء جميلة حطت على غصن شجرة في حقل السلطان.

كما يتحول أخ البطلة في حكاية بقرة اليتامى إلى غزال نتيجة شربه من ماء الواد المسحور، ولا يتمكن من استرداد صورته الأدمية، إلا بعد ممارسة بعض الطقوس السحرية عليه.

أما حكاية الدلالة، فتروي قصة العجوز الشريرة التي سحرت زوجة السلطان، فحولتها إلى حجر ملح ألقت بها في البئر بطلب من زوجتي السلطان الغيورتين.

كما تزرخ الحكاية الشعبية بعديد من هذه النماذج المسحورة والمتحولة؛ مثل السمكة التي تتحول بمجرد اصطياها من طرف رجل فقير إلى زوجة جميلة، فتتحول حال الرجل من الفقر والعوز إلى الغنى والجاه، ولأنه لم يصن ولية نعمته وحاول خيانتها مع امرأة أخرى، ثوافق الزوجة على زواج بعلمها، فتتحول مرة أخرى إلى سمكة، فيأخذها الزوج ويرمي بها في عرض البحر، وبمجرد أن يرميها يرجع مرة أخرى فقيرا معدما.

تأسيسا على ما سبق نصل إلى جملة من النتائج أهمها:

1. إبراز دور الخيال المتولد عن رواية القصص الشعبي في تطوير ملكة الإبداع لدى الطفل، فهو يسهم في تخصيص خياله، ويثير عقله، ويوسع من آفاقه، ويثري خبرته في الحياة، لذا يجب علينا أن نربط خيال الطفل بكل ما هو صالح، وتربوي، وأخلاقي، وإبداعي، من خلال ما تنبئه الحكايات الشعبية من قيم اجتماعية وأخلاقية ووطنية وإنسانية، كوسيلة مثلى لتحسين الناشئة وبناء شخصيتهم بناء متوازنا.
2. تُشكّل الحكاية الشعبية العمود الفقري لأدب الطفل وثقافته فهي وسيلة مثلى لإثراء مخيلة الطفل وتنمية قدرته على الخلق والابتكار.
3. الحكاية الشعبية وسيلة للتعليم والتعلم والإبداع لدى الطفل لذا يجب الاهتمام بها من قبل الأهل والمؤسسات التربوية.
4. الحكاية الشعبية وسيلة مهمة للترفيه والتسلية إلى جانب إثارة خيال الأطفال وتشويقهم إلى التعليم.
5. يجذب الأطفال كثيرا إلى الحكاية الشعبية لبساطتها وغرابة أحداثها الزاخرة بالبطولات والعجائب.

التوصيات:

- ضرورة اختيار الحكايات الشعبية المقدمة للأطفال حتى تؤثر بشكل إيجابي في تكوينهم العقلي والخُلقي، وتُثمي مخيلتهم وعقولهم وعواطفهم.
- المحافظة على الحكاية الشعبية والحرص عليها لكي تتلقفها الأجيال القادمة باعتبارها وسيلة مهمة لتنمية الملكات اللغوية والثقافية لدى الطفل.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم نبيلة (1981)، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط.3، دار غريب، القاهرة.
- أحمد نجيب (1991)، أدب الأطفال علم وفن، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ابن منظور (2008)، لسان العرب، المجلد السابع، ط.1، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- أنيس إبراهيم وآخرون (1982) المعجم الوسيط، ج.1، ط.2، د. ت.
- أوسوس محمد (2008)، كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
- بورايو عبد الحميد (1986)، القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

- بورايو عبد الحميد (2006)، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، الجزائر.
- الحديد علي (1988)، في أدب الأطفال، ط.4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- حميدة عبد الرزاق (2016)، قصص الحيوان في الأدب لعربي، مكتبة الأنجلو المصرية، مجلة الابتسامة، www.ibtesamh.com/vb
- الحنفي عبد المنعم (1975)، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- حنورة مصري عبد الحميد (2003)، الإبداع وتنميته من متطور تكاملي، ط.3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- الساريسي عمر عبد الرحمن (1980)، الحكاية في المجتمع الفلسطيني، ط.1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- الصباغ مرسي (2002)، القصص الشعبي العربي، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية.
- الصباغ مرسي (2016)، أدب الأطفال الشعبي، ط.1، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن.
- صليبيا جميل (1982)، المعجم الفلسفي، ج.1، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان.
- عبد الحميد شاكرا (2009)، الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ع.360.
- العنتيل فوزي (1965)، الفولكلور ما هو؟، دار المعارف بمصر، القاهرة.
- محبك أحمد زياد (2005)، من التراث الشعبي (دراسة تحليلية للحكاية الشعبية)، ط.1، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- مرتاض عبد المالك (1989)، الميثولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- محمود محمد صلاح محمد (6016)، فاعلية تدريبي قائم على نادي الفضاء في تنمية الخيال لدى الأطفال، مجلة دراسات عربية في التربية وعلم النفس (Asep)، ع.71.
- معلوف أمين (دت)، معجم الحيوان، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان.
- المنتدي الإسلامي (2018)، الخيال في قصص الأطفال في ضوء منهج الأدب الإسلامي، 20 فيفري.
- النبلاوي عائدة فؤاد (2015)، الحكايات الشعبية العمانية ودلالاتها الاجتماعية والثقافية (دراسة أنثروبولوجية)، مجلة الأدب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان.
- يوسف عبد التواب (1988)، الأدب الشعبي في عصر التلفزيون والفضاء هل... يتقبله الأطفال ويُقبلون عليه؟!، مجلة الفنون الشعبية، ع.24، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- MONTDATARBAWY.COM.